الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ : ١١ اكتوبر ٢٠٠٢

هل سيضرب العراق؟

نطرح السؤال هكذا عاريا من كل زخرف متظاهرين بأنه يمكن ان يكتب على هذا النحو، ليس لاننا نصدق انه سؤال ممكن من الناحية الفنية - اذا جاز التعبير - وانما انسياقا مع حمى عجيبة اجتاحت البشرية في هذه اللحظة وخصوصا الجمهور العادي، تعتبر ان من الاهمية بمكان ان نجيب عن السؤال بالضبط بنعم او لا. وهو ما يعني ان الموضوع بسيط الى درجة انه يحتمل هذه الاجابة الواضحة، مع انه بطبيعته ليس كذلك. فليس الامر كما هو في هواجس المحبين «بحبني ما بحبني» متعلقا بارادة فرد ما او مشاعره الشخصية، وان بدا احيانا، وكأن ضرب العراق رهن بمشاعر جورج الابن ورغباته الخاصة فإنه في الحقيقة ليس كذلك. ولعل اسوأ ما في الامر هو ان تحويل الواقع التاريخي الى حدث معزول ببساطة عن ارادة فرد ما مهما كانت اهميته او المنزلة التي يتبوؤها هو امر خطير بمعنيين: اولهما انه يخطئ فهم حركة التاريخ ويبعد عنها أية سمة تجعلها قابلة للدراسة العلمية، والثاني انه يقود الى يأس وقنوط من إمكان التأثير في مجرى التاريخ باعتبار ان ما هو كائن سيكون لا محالة، وان ارادة السماء فقط هي التي يمكن أن تغير ما هو مكتوب في طي الغيب.

ولكن قبل ان نفكر في حتمية ضرب العراق وما يمكن ان نفعل ازاءها، ربما يجدر بنا ان نطرح السؤال المهم المتعلق بأسباب ضرب العراق: فلماذا يا ترى يبدو اليوم ودون سائر الايام الخالية واللاحقة ضروريا الى هذه الدرجة، الى حد ان التفكير في تأجيل تدمير العراق وازاحة صدام حسين يعد خطرا لا يمكن للعالم وخاصة جزءه الحر ان يحتمله؟

لابد انه مهما فكرنا في ان الرئيس الامريكي وادارته يتمتعان بطاقة عجيبة على فعل الشر او انهما يعملان بالفعل لحساب شيطان متمرد وسيئ الطباع وراغب فقط في امتصاص دماء البشر وخاصة الشرقيين منهم، فإننا مع ذلك لا نستطيع الا القول ان هذا الشيطان لكي يتنكب مسيرة السفر لقتال هؤلاء الشرقيين، فانه لابد يمتلك مسوغات ما على الاقل تقنعه شخصيا، وتقنع اهل بيته الاقربين، ناهيك عن الحلفاء الاقرب ثم الابعد على وجه التدريج. فما هي الاسباب التي يمكن ان تسوغ الميل الجارف هذه الايام الى ضرب العراق وإزاحة قائده الذي طالما تحمله العالم المتحضر في ظروف اسوأ بكثير من التي نعيشها هذه الايام.

اول ما يخطر بالبال بطبيعة الحال البترول الذي يسيطر العراق اليوم - على أرجح التقديرات - على اكبر احتياطي منه على الاطلاق، ربما ان السعودية نفسها لم تعد تتصدر الارقام في هذا المجال. ومن الواضح ان تمتع العراق بهذه السيطرة امر مزعج بالفعل، وخاصة في ظل قيادة متقلبة لا يمكن ضمان استقرار رأيها السياسي لأشهر، ناهيك عن السنين او العقود، ولأن الحكمة تقتضي ان لا ينام المرء بين القبور ولا ان يحلم احلاما مزعجة، فإن وضع هذه الثروة الطبيعية الاستراتيجية تحت يد مستهلكها ابن العالم الحر مباشرة هو افضل وأسلم عاقبة، وغني عن البيان انه اذا تم اخضاع العراق مباشرة باحتلاله، او غير مباشرة بأية طريقة اخرى، من نوع نظام يأتمر مباشرة بأوامر واشنطن سيكون له مفعول السحر في ضبط بقية منابع النفط العربية وغير العربية في هذه المنطقة من العالم المسماة بالشرق الاوسط.

السبب الثاني ربما يتعلق باحكام بناء النظام العالمي الجديد الذي ما زال قلقا من بعض جيوب المقاومة هنا وهناك في لبنان وسوريا وكوريا وماليزيا.. الخ. ومن الواضح ان حملة التخويف التي تمت بضرب افغانستان كانت نموذجا طيبا يمكن توسيعه ليشمل هذه المرة منطقة اكثر وعورة وخطورة. ولكن بسبب ذلك فإن ما ستطرحه سوف يكون بدون شك اكثر اهمية وفاعلية مما طرحته مغامرة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

افغانستان الاصغر شأنا. لابد ان العالم العربي سيغدو على الارجح محمية امريكية بدون أي تنغيص. وسيكون على سوريا ولبنان وحزب الله - بل وحتى حماس والجبهة الشعبية - ان يتعظوا قبل ان تقوم الآلة الامريكية الجبارة بتقليم اصابعهم. ولن تكتفي هذه المرة بتقليم اظافرهم. فذاك زمان ولى الى غير رجعة ولا تقبله المعايير الامريكية في ظل حقبة العولمة. في هذا السياق يمكن للمرء ان يلاحظ ان التخويف في حد ذاته بالتلويح باستخدام القوة المفرطة قد يكون سببا او واحدا من الاسباب الجوهرية للهليلة الراهنة. ولا بد ان القارئ يتذكر اضطرار سوريا الى الركض الى شرم الشيخ لادانة الارهاب خوفا مما لا تحمد عقباه. بل ان العراق نفسه صاحب المشكلة الرئيسي قد أعرب عن «تمسكه» بضخ النفط حتى لو ضرب. وهي بادرة تعقل وحسن نوايا قلما لجأ اليها صدام حسين ايام مجده الغابر.

لابد ان الولايات المتحدة قد تلقت ضربة مرعبة في ايلول/ سبتمبر الذي اطلق ذكراه قبل اسابيع ولابد ان المواطن الامريكي كاد ان يفكر في الاسباب التي تجعله مستهدفا دون شعوب الارض على ذلك النحو البغيض، وهو ما نجحت الادارة الامريكية في ازاحته عن مركز اهتمامه عبر دق طبول الحرب بسرعة، وجر المجتمع الى اجواء الحرب الصليبية وهو بالضبط التعبير الذي فضل استعماله الرجل الاول في الدولة. من هنا نذهب الى القول ان التقنية التي نصح بها دائما واحد من كبار خبرائهم - أعني هنري كيسنجر - تطبق هنا على أكمل وجه: لا تعط الفرصة للجمهور ليلتقطوا انفاسهم فيدركوا لماذا تجري الامور على النحو الذي تجري عليه. ابقهم مندمجين في خطوة تتلو خطوة من الاثارة التي تقتل اية قدرة على التركيز. هكذا تنجح في ادارة معاركك بأقل ازعاج ممكن. وبهذا المعنى فإن السطو الصريح على جيوب الفئات الدنيا في السلم الطبقي لمصلحة المؤسسات العملاقة يجب ان يستمر من دون ان يسمع المرء همسة تذمر واضحة. والحقيقة ان عسكرة الحياة وإبقاءها في حال دائم من الترقب لكوارث شرقية مرعبة يسهل حياة الطغمة المالية والعسكرية المسيطرة وسط اوهام الديمقراطية التي ما عادت تخفى على احد، لاعتبارات من هذا النوع ولاعتبارات انتخابية مألوفة يمكن ان تكون الحرب ذات فوائد لا بأس بها.

لكن صانع السياسة الامريكية كما غيره في العالم لا يدق طبول الحرب لمجرد توفر اسباب كالتي ذكرنا. الحقيقة ان عليه ان يحسب تكلفة الحرب، واحتمالات الربح والخسارة. واذا كان أي مجتمع يمكن ان يتجاهل هذه الحسبة فانه ليس بالتأكيد مركز الرأسمال العالمي الذي لا يفكر في الواقع الا عبر هذه الحسابات بالذات. ولو كان الامر مجرد رغبات ومطامع استعمارية لتوقعنا من دولة كالولايات المتحدة او حليفتها بريطانيا العظمى ان تقوم صبيحة الغد بالذات باجتياح اليابان والصين والمنطقة العربية من دون سابق انذار. ولكن الامور اسيرة ما يمكن وما لا يمكن فعله. وفي اعتقادنا ان العالم ليس سائغا للالتهام الى هذه الدرجة، على الرغم من الضعف والارتخاء العام الذي يعتري اطرافه هنا وهناك.

ربما ان ما يجري هو للترهيب والترغيب الذي يمكن ان يحسن موقع الولايات المتحدة وحصتها من الكعكة في مواجهة الاصدقاء والحلفاء قبل الخصوم والاعداء. ولكن حتى الضربة نفسها هي جزء من هذا السيناريو ككل. وهذا الجذب والشد الذي يمارس والضجيج الاعلامي الهائل يمكن ان يقود في النهاية الى ضرب العراق اذا اتضح أن ذلك ممكن على الصعيد الواقعي. بل ان تحويل الناس وخاصة العرب منهم الى حالة الانتظار وحزيرة «أيضربون العراق أم لا» هي جزء من القرار. وقوف الناس بصرامة ضد العدوان، والاصطفاف الواضح مع شعب العراق يمكن ان يجهضا نوايا المعتدين، واما الفرجة الاعلامية المكتفية بانتظار ما ستأتي به الايام فسوف تؤدي حتما الى تدمير العراق وغيره عاجلا ام آجلا.

ناجح شاهين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية